محور القرب والبعد
في تضام عناصر النص القرآني

لا بد لكل نظام أن ينبني علي محاور PARAMETERS من العلاقات المترابطة إيجابا وسلبا يشتمل كل منها علي قطبين أو أكثر . ويصدق ذلك علي كافة أنواع الأنظمة ، ومنها نظم اللغة العربية . لقد عني النحاة العرب منذ بدء التفكير في قضايا النحو العربي بتناول هذه المحاور العلائقية ، وبكيفية ربطها بين عناصر الكلام ، فخرجوا من ذلك بالكشف عن أثر هذه المحاور في ضبط القواعد التي تصف اللغة وطرق استعمالها . دعنا نضرب من الأمثلة ما يوضح صدق ما نقول ، وذلك بأن ننظر أول الأمر في محور أقسام الكلم . فلهذا المحور أقطاب متعددة منها الاسم والفعل والحرف الخ. والعلاقة بين كل قطب منها وبين الآخر علاقة تقابل وسلب ، بمعني أن القطبين لايجتمعان في عنصر واحد في جملة بعينها . ولكن كل قطب منها في الاستعمال يتقاطع مع أقطاب المحاور الأخري . فإذا نظرنا إلي عناصر جملة مثل : «أكل الغلام التفاحة» وجدنا تقاطع المحاور علي النحو التالي :

اللفظ	القسم	الشخص	العدد	النوع	التعيين	الذكر	الإعراب	التضام	العلامة	الوظيفة
أكل	فعل	للغائب	للمفرد	للمذكر	—	ظاهر	مبنى	مفتقر إلى فاعل	متقدم متعد	فعل ماض (حدث+ مضى)
الغلام	اسم	غائب	مفرد	مذكر	معرف	ظاهر	مرفوع	عمدة	متأخر	فاعل
التفاحة	اسم	غائب	مفرد	مؤنث	معرف	ظاهر	منصوب	فضلة	تعدى إليه الفعل (غير محفوظ الرتبة)	مفعول به

وهكذا تعتمد وظيفة اللفظ المفرد في هذه الجملة بذاتها علي تقاطع أقطاب المحاور المذكورة من القسم إلي الشخص والعدد والنوع والتعيين والذكر والإعراب والتضام والعلاقة السياقية والرتبة ونحوها .

وهذا التقاطع بين أقطاب المحاور هو اللبنات التي تتحقق بها شروط الصياغة ، وبها يقوم صرح المعني ، ويؤمن بها اللبس . ومعني أن العناصر المتقاطعة أقطاب المحاور أن كل واحد منها يقابله قطب آخر أو أكثر في حدود المحور الذي ينتمي إليه . فالاسم مثلا يقابله الفعل والحرف ، والغائب يقابله المتكلم والحاضر ، والمفرد يقابله المثني والجمع ، والمذكر يقابله المؤنث، والمعرفة يقابله النكرة ، والظاهر يقابله المضمر والمستتر والمحذوف ألخ . وفيما يلي عرض لجملة من محاور التعليق في اللغة العربية :

المحـــور	أقطـــــــابه			
أقسام الكلم	اسم	فعل	حرف	الخ
الشخص	متكلم	مخاطب	غائب	
العدد	مفرد	مثنى	جمع	
النوع	مذكر	مؤنث		
التعيين	معرفة	نكرة		
الحالة	إعراب	بناء		
الذكر	إظهار	إضمار	استتار	حذف
التضام	افتقار	اختصاص	استغناء	
الصيغة	مجردة	مزيدة	منقوصة	
الرتبة	محفوظة	حرة	تقديم	تأخير
الإعراب	رفع	نصب	جر	
القرينة	ظاهرة	مقدرة		
المأخذ	مشتق	جامد		
الصرف	منصرف	ممنوع		
الطرد	تصحيح	تكسير		
الموقع	عمدة	فضلة		
المسافة	قريب	بعيدة		

ويمكن للقطب أن يتفرع إلي أقطاب فرعية ، فالفعل مثلا له قطبان : الحذف والزمن . وللمؤنث قطبان : الحقيقي والمجازي . وللإعراب إما علامة أصلية أو فرعية . وهلم جرا .

ولقد حظي معظم المحاور السابق ذكرها بالكلام المسهب من النحاة ما عدا محور المسافة بقطبيه : القرب والبد . فهذا المحور لم يجد عناية به إلا في حدود ضيقة من نظرية النحو العربي ، كما يلي :

١ – اسم الإشارة قد يشير إلي قريب أو بعيد .

٢ – المنادي قد يكون قريبا أو بعيدا .

٣ – الضمير يعود إلي أقرب مذكور .

ويقف الأمر عند هذا الحد . ولكننا سنري فيما يلي أن تطبيق هذا المحور لا ينحصر في هذه الصياغات النحوية ، وإنما يمتد إلي غيرها من الأبواب النحوية التي يتخطاها إلي الأساليب والبلاغة علي نحو ما يتضح في الفقرات التالية :

من الواضح أن أية علاقة نحوية أو أسلوبية بين عنصرين من عناصر السياق إنما تكون أكثر وضوحا مع قرب أحدهما من الآخر منها عند بعده عنه . وليس ذلك مقصورا علي الثلاثة المجالات المذكورة منذ قليل ، وإنما يتخطاها إلي مجالات عديدة أخري كطرفي الإسناد وكالفعل وما يتعدي إليه وكالموصوف وصفته والمعطوف وكالشرط وجوابه والمسافة بين المتلازمين وكالجار والمجرور ومتعلقه وكطرفي الالتفات والتكرار ، وهلم جرا . فالقرب بين الطرفين في كل ذلك يعين علي وضوح المعني . ولكن أمن اللبس المترتب علي وجود قرينة يتضح بها المعني سواء كانت لفظية أو معنوية يسمح في الكثير من الأحوال بمطل أول الطرفين أو الفصل بينهما بعنصر أصلي أو زائد أو بجملة معترضة ، وبذلك يقع الترخص في قرب أحد العنصرين من الآخر مادام المعني واضحا واللبس مأمونا . دعنا نستشهد بالآيات القرآنية الكريمة علي صدق هذه الدعوي مع البدء بالمسافة بين الضمير ومرجعه :

بين الضمير ومرجعه :

١ – عند غياب القرينة علي المعني المراد ينبغي للضمير أن يعود إلي أقرب مذكور ، ولا سيما إذا كان في ذلك ما يرجح أحد احتمالات المعني المتعددة. يشهد علي ذلك قوله تعالي : «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ » (النساء ٨١) إذ إن في الفعل «تقول» ضميرامستترا تقديره «هي» يعود علي الطائفة ؛ أي أن الطائفة المذكورة قالت : «طاعة» وبيتت معصية. وليس الأمر كما قال القرطبي رحمه اللّه : «بدلوا قول النبي صلي اللّه عليه وسلم فيما عهده إليهم وأمرهم به » لأن الآية لم تشتمل علي قول قاله النبي عليه الصلاة والصلام وإنما اشتملت علي قولهم هم : «طاعة» ولو كان الأمر علي غرار ما ذكره القرطبي وغيره لكان الضمير راجعا إلي من تدل عليه الكاف في «من عندك» لأنه أقرب المرجعين ، أي إلي النبي صلي اللّه عليه وسلم. ولكن الإشارة في الآية لم تجر إلي ما قاله هو وإنما جرت إلي إعلانهم نية الطاعة وهم معه وإلي أنهم يبيتون غيرها بعد انصرافهم . من هنا يكون عود الضمير إلي الطائفة أوضح وأولي ويعضده قرب المسافة بين الضمير ومرجعه .

٢ – ومن العود إلي أقرب مذكور أيضا ما نجده في قوله تعالي : «فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» (البقرة ٢٣٠) ذكر الفعل «طلقها» في الآية مرتين وهو يشتمل في كلتا الحالتين علي ضمير مستتر دال علي الفاعل . وهذا الضمير يعود في الحالة الأولي إلي الزوج الأول الذي استوفي الطلقات الثلاث والمرجع هنا متصيد من سياق الكلام . أما في الحالة الثانية فضمير الفاعل يعود إلي أقرب مذكور وهو المقصود بقوله : «زوجا غيره» . فإذا طلقها هذا الزوج الثاني فللأول أن يراجعها ولا جناح عليه في ذلك . وهكذا يعود الضمير إلي أقرب مذكور .

٣ – أما إذا وجدت قرينة علي المعني وأمن اللبس فإن الضمير يمكن

أن يعود إلي أبعد مذكور. ففي قوله تعالي : « لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف٧-٨) يعود الضمير وهو واو الفاعل في «قالوا» إلي أبعد الجماعتين السابقتين منه وهم الإخوة ، لا إلي أقربهما وهم السائلون . ويعضد ذلك سبب تركيبي وقرينة عقلية . إما السبب التركيبي فلو أن مقول القول (وهو كل ما جاء بعد لفظ «قالوا» من الاقتباس السابق) جاء بعد الإخوة مباشرة (وهم أقرب مذكور إلي مقول القول) لكان الضمير عائدا إلي أقرب مذكور ، ولبعدت المسافة بين كان واسمها إلي درجة تذهب بوضوح المعني من جهة وبحسن السبك من جهة أخري . ومن ثم وقع اسم كان وهو «آيات للسائلين» في مكانه من الآية فاصلا بين الضمير في «قالوا» وبين مرجعه وهو الإخوة . أما القرينة العقلية التي تدل علي أن الضمير للإخوة فهي تتمثل في أمرين أحدهما أن السائلين كانوا يخاطبون النبي عليه الصلاة والسلام ، أي أنهم كانوا معاصرين له ، ومن ثم لايفهم من الكلام أنهم إخوة يوسف وأبناء يعقوب . والثاني أن الإخوة أضيفوا إلي ضمير يوسف في لفظ «إخوته» كما أضيف الأب إلي ضميرهم في «أبينا» ، فاجتماع الإضافتين قرينة تدل علي أن الإخوة هم مرجع الضمير في «قالوا» .

٤ - ومن ذلك ما نجده في قوله تعالي : «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (البقرة ٦٧) إذ يستمر بنو إسرائيل في مناكفة موسي بتوجيه الأسئلة إليه حول البقرة المطلوب ذبحها حتي نهاية الآية رقم ٧١ . عندئذ يأتي قوله تعالي : «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا» (البقرة ٧٢ - ٧٣) . فالضمير في «بعضها» يعود من الآية ٧٣ إلي البقرة التي ذكرت في الآية ٦٧، ولاشك في أن المسافة بين الضمير في «بعضها» ومرجعه من البعد بحيث يتطلب إرجاع الضمير قدرا من التذكر ، وبخاصة أن القتيل كان «نفسا» بلفظ مفرد مؤنث يتفق في هذين المحورين مع الضمير في «بعضها» . غير أن الفعل «اضربوه» أضفي علي

النفس المقتولة من التذكير ما يحول بينها وبين أن تكون مرجعا للضمير في «بعضها» وبذا يعود إلي البقرة ويكون المعني : فقلنا اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة وهو ذيلها . وهكذا يعود الضمير عند وجود القرينة إلي أبعد مذكور .

٥ - قال تعالي «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا» (الكهف ٣٢ - ٣٤) . لو أعدنا الضمير في «له» إلى أقرب مذكور لعاد الضمير إلي «نهر» ، ولكن جملة «فقال لصاحبه» في موقعها من الكلام ربطت بين الضمير في «له» والضمير في «صاحبه» فجعلتهما لمرجع واحد ، وبذا حالت دون عود الضمير إلي النهر .

٦ - قال جل شأنه : «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» (البقرة ٢٦٦) . وهنا أيضا لو أعدنا الضمير في «أصابها» إلي أقرب مذكور لعاد إلي الذرية الضعفاء . ولكن الذرية قد تكون من الضعف بحيث لايكون فقدها كارثة تستحق الألم والندم ، ولقد كان الجاهليون يئدون بناتهم لكونهم ذرية ضعيفة تمثل عبئا عند الغارة ولا تمثل نصيرا عند الغزو . أما الجنة فقد فصلت الآية مزاياها حتي جعلتها أمرا يستحق أشد الحرص عليه والاعتزاز بملكيته . فلو أصابها الإعصار لكانت إصابتها كارثة لايود إنسان عاقل أنه رزيء بها ، ولاسيما إذا كانت له ذرية ضعفاء لا يسعون لطلب الرزق ، وإنما تمثل الجنة مصدر رزق لهم . وهكذا يعود الضمير إلي أبعد مذكور ، لأن المعني يقتضي ذلك . والمعروف أن جملة الاستفهام الإنكاري إذا اشتملت علي حرف نفي قدر معناها علي الإثبات نحو «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ

عَلَيْكُمْ» (المؤمنون ١٠٥) أي : لقد كانت آياتي تتلي عليكم . أما إذا لم تشتمل علي حرف نفي فإن معناها يقدر منفيا . فتقدير الآية (٢٦٦) من البقرة وقد سبقت هو : لايود أحدكم أن تكون له جنة .

ومعني المناقشة التي سبقت أن الاعتبارات الأسلوبية تحول دون ارتباط عود الضمير بقاعدة نحوية معينة ، أي أن قول النحاة إن الضمير يعود إلي أقرب مذكور لاينبغي أن يقبل علي إطلاقه ، إذ قد يتطلب الأسلوب والمعني عوده إلي أبعد مذكور كما رأينا .

المسافة بين طرفي الإسناد :

إذا تقارب طرفا الإسناد كان ذلك هو الأصل فيهما ، ولكن توافر قرائن المعني يبرر البعد بينهما كثيراً ، سواء كان هذا البعد ضئيلا كالفصل بينهما بالمفردات أو ملحوظاً كتوسط الجملة المعترضة بينهما . وفيما يلي عدد من الشواهد علي بعد المسافة بين طرفي الإسناد .

١ - قال تعالي : «فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ» (المائدة ١٠٧) . فهنا وصف المبتدأ «آخران» بجملة باعدت بينه وبين الخبر وسوغت الابتداء به وهو نكرة ، ثم جاء الخبر معرفة . تقدير الآية : فآخران قائمان مقامهما هما الأوليان بذلك . ولما كان الابتداء بالنكرة هنا له ما يسوغه وهو الوصف أصبح ارتباط الخبر بالمبتدأ أمرا أقرب للفهم علي رغم ورود الخبر «الأوليان» بعد الفعل «استحق» في موضوع يقع فيه الفاعل غالبا.

٢ - قال تعالي : «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ» (آل عمران ٢ - ٤) . المبتدأ لفظ الجلالة والخبر «نزل عليك الكتاب بالحق» . وقد فصل بينهما بجملة معترضة «لا إله إلا هو» وصفتين هما «الحي القيوم». فلا يحق لقائل هنا أن يقول إن الخبر هو جملة «لا إله إلا هو» ولا إن الخبر هو «الحي القيوم» ليجعل ما يلي علي سبيل الاستئناف .

أن النظرة المتأنية إلي النص تبين أن مناط القول هو أن اللّه سبحانه يمن علي رسوله صلي اللّه عليه وسلم بإنه نزل عليه الكتاب بالحق ؛ والقرينة الدالة علي ذلك قوله تعالي بعد ذلك « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ » (آل عمران ٤) . وقد سبقت الإشارة إلي أن وجود القرينة الدالة علي المعني ييسر اتخاذ القرار في شأن المؤشرات الأسلوبية ومنها البعد ما بين طرفي العلاقة .

٣ – قال جل شأنه : « تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» (السجدة ٢) . المبتدأ لفظ «تنزيل الكتاب» والخبر «من رب العالمين» وما بينهما جملة معترضة . ولو ارتضينا أن الخبر «لا ريب فيه» لكان المعني نفيا لكونه سبحانه قد ارتاب في التنزيل ، والتقدير أن تنزيل القرآن لم يصادف ارتيابا من اللّه سبحانه وتعالي . والمعروف أن نفي الدعوي يفهم منه سبق ادعاء وقوعها بمفهوم المخالفة.

٤ – قال تعالي : «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ » (السجدة ٤) . المبتدأ لفظ الجلالة وقد وصف بالموصول وصلته وما عطف علي صلته قبل أن يأتي الخبر ، وهو «مالكم من دونه من ولي ولاشفيع » . فإن قال قائل إن الخبر هو الاسم الموصول «الذي» وأن جملة «مالكم من دونه .... الخ» جاءت علي سبيل الاستئناف فالجواب أن الإخبار يكون بواسطة المجهول وبالمجهول لا بالمعلوم . وواضح أن المخاطبين كانوا يعرفون أن اللّه هو خالق السموات والأرض «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (الزمر ٣٨) ولكنهم كانوا يتخذون الأصنام أولياء وشفعاء «وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ» (يونس ١٨) وإذا كان الأمر كذلك فالخبر هو «مالكم من دونه من ولي ولا شفيع».

٥ – قال تعالي : «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» (الأنعام ١٥٨) . الأصل في الفاعل أن يتصل بالفعل وفي المفعول أن ينفصل عن الفعل ، بمعني أن الرتبة هي

(فعل+ فاعل + مفعول) . ومن هنا يصبح فصل الفاعل عن فعله أدعي للإنتباه من فصل المفعول عن هذا الفعل ، علي الرغم من أن بين الفعل المتعدي والمفعول به علاقة تسمي «التعدية» . فإذا نظرنا إلي موضع الفاعل «إيمانها» من فعله ومن المفعول به في هذه الآية الكريمة وجدناه مغايرا للرتبة الأصلية التي ذكرت منذ قليل . فإذا تصورنا تقديمه بحيث يسبق المفعول به بحكم الأصل واجهنا عود الضمير إلي متأخر لفظا ورتبة ، وإذا تصورنا تأخيره إلي آخر الكلام بحيث يلي ما وصف به المفعول من عبارة «لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» لوجدنا ضعف العلاقة بين «إيمانها» وبين فعله «ينفع» مما يؤدي إلي سوء السبك .

٦ – قال تعالي : «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» (البقرة ١٢١) ، المبتدأ هو الموصول «الذين» ، وجملة «يتلونه الخ» حال والإشارة «أولئك» لربط الخبر بالمبتدأ المشار إليه بها ، والخبر جملة «يؤمنون به» . ولايجوز أن نجعل الإشارة مبتدأ علي نية الاستئناف لأن في ذلك إقرارا بأن اليهود كانوا يتلون التوراة حق تلاوتها مع أهم بدلوها وحرفوا نصها وحملوها فلم يحسنوا حملها . أما علي المعني المقترح فإن الذين يتلون الكتاب حق تلاوته طائفة منهم دون جميعهم . وهكذا كانت القرينة عونا علي استحسان البعد بين المبتدأ والخبر .

٧ – قال تعالي : «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ» (البقرة ١٨٠) . جاء البعد بين الفعل «كتب» ونائب فاعله «الوصية» بمقدار جملتين شرطيتين يفهم جوابهما من الجملة الأصلية «كتب عليكم» . والذي سهل وقوع الجملتين الشرطيتين في موقعهما من الآية أنهما تمثلان قيدين علي وجوب الوصية . والمعروف أن القيد في النص جزء لا يتجزأ من النص . ولذا خف أثر البعد بين نائب الفاعل وفعله .

نسخ جملة الخبر:

١ – قال تعالي : «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ

الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة ١٦٤) . الأصل في رتبة اسم إن أن يليها مباشرة وألا يفصل الخبر بينه وبينها إلا أن يكون ظرفا أو جارا ومجرورا. والذي في هذه الآية هو الفصل بين إن وإسمها بالخبر المكون من جار ومجرور . ومناط الكلام هنا هو التنبيه إلي بعد المسافة بين إن وإسمها في هذه الآية . فما الذي برر هذا البعد من الناحية النحوية ، وما القرينة التي دلت علي المعني دون التأثر بهذا البعد؟ أما المبرر فيتمثل في أن ما عطف علي الخبر فهو من الخبر وما عطف علي الفاعل فهو فاعل أو علي المفعول فهو المفعول ، وهلم جرا . وبذا تكون الحصيلة في تركيب الآية هي تقدم الخبر علي الاسم مهما تعددت المعطوفات . ولاشك في أن تقدم الخبر مؤشر أسلوبي معتاد يحمل من المعني ما لايحمله وقوعه في رتبة التأخر . هذا هو المبرر . أما القرينة فهي إلي جانب الحركة الإعرابية للاسم المتأخر وهي الكسرة نيابة عن الفتحة أن اللام المزحلقة من شأنها أن تتصل باسم إن عند تقدم الخبرة . وبذا يتضح المعني ويحسن السبك علي رغم بعد المسافة .

٢ – قال تعالي : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة ٦٢) . طالت المسافة بين إن وخبرها لتعدد العطف علي اسم إن ، وهو أمر لا تأثير له في وضوح المعني كما سبقت الإشارة . ثم جاء خبر إن في صورة جملة شرطية توالت فيها المعطوفات علي فعل الشرط، فلم يكن لذلك أثر علي وضوح المعني ؛ لأن ما عطف علي الشيء فله حكمه ومعناه النحوي . ثم يأتي جواب الشرط آخر الأمر مقترنا بالفاء لأنه جملة اسمية ويظل المعني واضحا لكثرة القرائن .

٣ – قال تعالي : «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ» التوبة ٩١) . تقدم خبر ليس الجار والمجرور وعطف عليه معطوفان آخران ثانيهما موصول وصلته ، ثم جاء اسمها نكرة مؤخرا ليفيد النفي بالنصح لله ورسوله . وهكذا كانت مسافة البعد بين ركني الجملة بمقدار ما عطف علي الخبر المقدم ، وقد سبق القول إن ما عطف علي الخبر فهو من الخبر . وبذلك لايتأثر المعني ولا حسن السبك بطول المسافة بين ركني الإسناد .

التعدية :

١ - قال تعالي : «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (البقرة ١٠٥) . قلنا إن الأصل في رتبة الفاعل أن يتصل بالفعل ، وإن الأصل في رتبة المفعول به أ ينفصل عن الفعل . وبذا جاءت رتبة مكونات الجملة التي بين أيدينا في سياق الآية علي أصل الصياغة . ولكن الفاعل جاء ممطولا بصلة فيها وصف له وفيها معطوف علي هذه الصلة وقد باعد ذلك بينه وبين المفعول الذي جاء علي صورة المصدر المؤول من أن والفعل . لكن الفعل متعد يتطلب مفعولا لو حذف ما دل عليه دليل . ومن ثم يتوقع القارىء العثور علي هذا المفعول بعد إنقضاء الفاعل ، وهذا التوقع بذاته يعد قرينة معنوية علي هذا المعني . وهكذا يؤمن النبس ويحسن السبك .

٢ - قال تعالي : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (البقرة ١٦٨) . جاءت الآية علي أصل الرتبة (فعل + فاعل + مفعول) ، ولكن الفاعل جاء ممطولا بواسطة حرف الجر الذي دخل علي الموصول وصلته «مما في الأرض» ومع أن المطل من شأنه أن يباعد بين المتلازمين نجد الجار والمجرور هنا من تتمة ما تعلقا به ، ومن ثم كان المطل هنا موضع استحسان .

٣ - قال سبحانه : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ

ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ » (البقرة ١٧٧) . المعروف بالنسبة للفعل «أعطي» وما في معناه أن المفعول الأول هو الآخذ والمفعول الثاني هو المأخوذ ، بقطع النظر عن اعتبارات الرتبة في الجملة الحاضرة . والآخذون في هذه الآية هم ذوو القربي ، والمأخوذ المال . ففصل السياق بين الفعل ومفعوله الأول بالمفعول الثاني بتقديمه مع ما عطف عليه من جار ومجرور متعلق بالفعل «آتي» علي المفعول الأول . ذلك أن الرتبة التي جاءت في هذه الآية لو عكست بحسب الأصل لطال الفاعل بما عطف عليه وجاء المفعول الثاني كلمة مفردة علي النحو التالي : (وآتي ذوي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب المال علي حبه). وهكذا يسوء سبك النص . وقد جاءت الرتبة معكوسة أيضا في قوله تعالي: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ » (البقرة ٢٦٩) لأن الرتبة لو جاءت علي أصلها لوقع اللبس من حيث يظن السامع أن الحكمة مفعول به للفعل «يشاء» .

٤ – قال تعالي : «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (البقرة ١٩٠) . فصل بالجار والمجرور بين الفعل «قاتلوا» والمفعول به «الذين يقاتلونكم» لأن الجار والمجرور كما هو معلوم من تتمة معني الفعل . ولو تأخر الجار والمجرور فجاء بعد «الذين يقاتلوكم» لتعلق الجار والمجرور بالفعل «يقاتلونكم» وانقلب المعني فصار الكفار هم الذين يقاتلون في سبيل الله .

٥ – قال تعالي «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (البقرة ١٠١) فاعل الفعل «نبذ» موصوف بجار ومجرور موصول في محل جر وصلته قبل أن يأتي المفعول به «كتاب الله» . ولكون الموصوف وصفته مترابطين كالشيء الواحد لانجد في تركيب الجملة أمرا يحول دون وضوح المعني . أضف إلي ذلك أن رتبة عناصر الجملة جاءت علي أصلها .

الموصوف وصفته :

١ - قال تعالي : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ» (سبأ ٣) فصل بجواب القسم «لتأتينكم» بين المقسم به «وربي» وصفته «عالم الغيب» لأن جواب القسم كان رداً علي جحدهم مجيء الساعة. ومن ثم كان ايراد الجواب مؤكدا بالنون الثقيلة هو الغرض الذي سيق الخطاب من أجله ، فكان أولي بالتقديم من إيراد صفة من صفات اللّه تعالي لا مراء في اتصافه بها .

٢ - قال تعالي : « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (سبأ ٤٨) . قرأ بنصب «علام» قوم منهم عيسي وابن إسحق وزيد بن علي وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب بن طلحة ، وقرأ الجمهور بالرفع . فعلي نصب «علام» تتجلي أهمية خبر «إن» وهو «يقذف بالحق» بالنسبة لسياق النص ، لأن النص يبدأ باتهامهم القرآن بأنه «إفك وسحر» ، يقول سبحانه قبل ذلك بقليل: «وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ» (سبأ ٤٣) . وكانت دعواهم هذه بلا دليل من كتب يدروسونها أو نذر جاءتهم . لهذا دعوا إلي أن يقوموا للّه مثني وفرادي ثم يتفكروا في أحوال صاحبهم الذي لم يسألهم أجرا علي التصدي لهدايتهم وسيرون أنه ما بصاحبهم من جنة وأن القرآن حق قذفه اللّه علام الغيوب وهكذا تعطي قراءة النصب خبر إن رتبة التوسط بين اسمها وصفته.

٣ - مرة أخري نسوق قوله تعالي «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» (الأنعام ١٥٨) . المراد هذه المرة الإشارة إلي الفصل بين الموصوف وصفته الجملة «لم تكن آمنت ... الخ» بواسطة الفاعل . وقد أشرنا من قبل إلي أن موقع هذا الفاعل من الآية لا يجوز تقديمه ولا تأخيره لأسباب نحوية وأسلوبية . أما نحويا فلو تقدم الفاعل علي المفعول لعاد الضمير منه إلي متأخر لفظا ورتبة ، وأما أسلوبيا فلو تأخر الفاعل إلي ما بعد استيفاء المفعول به لصفته لضعفت

العلاقة بينه وبين فعله ، وساء سبك الجملة ولا سيما لأن هذا الفاعل كلمة مفردة.

٤ - قال تعالي : «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (النساء ١٣٨ - ١٣٩) . هنا جاء وصف المنافقين بأنهم « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» ، وتعلق الجار والمجرور «بأن لهم عذابا أليما» بالفعل «بشر» فاصلا بين الموصوف «المنافقين» وثفته «الذين يتخذون ...الخ» فكان التركيب كأنه لف ونشر مرتب ، إذ جاء الأول للأول والتالي للتالي . فاستولي الفعل ما تعلق به قبل أن يستوفي المفعول صفته . لو تأخر الجار والمجرور إلي ما بعد صفة المفعول لكان ذلك سببا في ضعف العلاقة بينه وبين الفعل ، وهذا الضعف وجه من وجوه سوء السبك .

٥ - قال تعالي: « إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ... الخ» (النساء ١٤٠ - ١٤١) . فصلت الآية بين الموصوف «المنافقين والكافرين » وصفته «الذين يتربصون» بفاصلين أحدهما الجار والمجرور المتعلق بخبر إن (أي بلفظ «جامع») والثاني توكيد المنافقين والكافرين (أي لفظ «جميعا») ، فهنا أيضا لف ونشر مرتب كالذي مر بنا تحت رقم ٤ السابق . ولو أن الجار والمجرور تأخر إلي ما بعد الصفة لصار التركيب «إن الله جامع المنافقين والكافرين الذين يتربصون بكم في جهنم جميعا» ولفهم من هذا التركيب أن التربص يتم في جهنم لمجيء الجار والمجرور بعد الفعل «يتربصون» .

٦ - قد توصف النكرة بالمعرفة بشرط الفصل بين الموصوف النكرة وصفته بصفة أخري نكرة ، ومن شأن الصفة النكرة أن تخصص الموصوف النكرة فتقربه من التعريف ، ومن ثم يصلح لأن يوصف بالمعرفة . تأمل قوله تعالي :

* «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ» (الهمزة ١ - ٢).

* «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» (ق ٢٤ - ٢٦) .

* «هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ» (ق ٣٢ - ٣٣) .

* «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» (الحديد ٢٣ - ٢٤) .

* «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» (النساء ٣٦- ٣٧) .

وتأمل ما يقال عند إنتهاء الأذان لأداء الصلاة :

«وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته».

فالفصل بين النكرة وصفتها المعرفة بصفة أخري نكرة شرط لوصف النكرة بالمعرفة .

الفصل بين المتعاطفين :

١ - قال تعالي : في آخر سورة الفاتحة : «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» ومن العبارات التي نرددها في الدعاء قولنا «غير ضالين ولا مضلين» بعطف منفي علي منفي آخر . والمعروف أن المنفيين المتعاطفين قد يسبق نفي أولهما ب ما أو «لا» أو «غير» . فإذا نفي الأول ب «ما » فإن المعطوف قد ينفي ب «ما» أو ب «لا» كما في قوله تعالي : «وما قتلوه وما صلبوه»(النساء ١٥٧)، (أي لم يحدث أي من الحدثين بقطع النظر عن حدوث الآخر)، وقوله جل شأنه : «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم» (الشعراء ١٠١). وانظر إلي قوله تعالي : «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (يونس ٦١) . أما إذا نفي الأول ب «غير» أو ب «لا» فليس في الثاني

إلا أن يعطف ب «لا» نحو قوله تعالي «فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى»(القيامة ٣١) وما سبق من عبارة «غير ضالين ولا مضلين» . بهذا يسهل علينا فهم طبيعة اجتماع النفي والعطف في قوله تعالي : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» (الأحزاب ٥٣) . أي أن النفي هنا يجمع بين الأمرين علي رغم طول الاعتراض بين المتعاطفين اللذين يجمع بينهما النفي في عبارة «غير ناظرين إناه ولا مستأنسين لحديث» . فالنفي لهما معا ، وقد فصل الاعتراض بالاستدراك القائل «ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا» لسبب مهم هو بيان شرط الدخول المقبول ، ومن ثم كان في موضعه الذي يحظي فيه بالاستحسان .

٢ – قال تعالي : «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ» (المائدة ٩٧) . وقع الفصل بين الكعبة والشهر بالإبدال من الكعبة بذكر «البيت الحرام» وبثاني مفعولي «جعل» وهو «قياما للناس» فطالت المسافة بين المتعاطفين . ولكن القرينة الإعرابية وهي نصب «الشهر» دلت علي أن الشهر معطوف علي الكعبة .

٣ – قال سبحانه : «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» (مريم ٣٠ – ٣٢) لو تمسكنا بمبدأ القرب لكان لفظ «برا» معطوفا علي «حيا» ولكان المعني : (وأصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتي) . ولكن القرينة أعانت علي فهم رابطة العطف بين «جعلني نبيا» وبين «برا» . تلك القرينة هي ما يتلو ذلك من النص بعد قوله : «وبرا بوالدتي» مباشرة من قوله تعالي : «ولم يجعلني جبارا شقيا» . وإنما يعد ذلك قرينة بسبب التضاد بين البر والجبروت والشقاء ، وكذلك التضاد بين «جعلني» التي في مطلع الآية و «لم يجعلني» التي في آخرها . ثم إن ألذي

في أداء الصلاة الذي في قوله تعالي : «وأوصاني بالصلاة والزكاة» لا يتوقف الأمر به علي أن يكون المرء برا بوالدته بحيث ... إذا توقف عن البر توقف عن أداء الصلاة .

٤ - قال تعالي : «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ» (التحريم ١١ - ١٢) . هنا أيضا لو تمسكنا بمبدأ القرب بين المتعاطفين لكانت مريم عطفا علي القوم الظالمين ، ولكن القرينة تحول دون ذلك . أولا بسبب الإعراب : فإعراب القوم الظالمين بالجر وإعراب مريم بالنصب ، ثانيا الموازنة بين إمرأتين عاصيتين هما إمرأة نوح وإمرأة لوط وإمرأتين صالحتين هما إمرأة فرعون ومريم ابنة عمران . فلا يمكن لمريم أن تكون من القوم الظالمين ولا أن تكون معطوفة عليهم في هذه الآية.

٥ - قال تعالي : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ » (البقرة ٢١٧) . يمتنع عطف الصد عن سبيل اللّه علي لفظ «قتال» علي رغم القرب ورغم احتمال وجاهة المعني ؛ (لأن القتال في الشهر الحرام يمكن أن يكون صدا عن سبيل اللّه) . ذلك أن عبارة «وكفر به» معطوفة علي الصد . وإذا صح أن يكون هذا القتال صدا عن سبيل اللّه فلا يصح أن يرقي (أو ينحط) إلي درجة الكفر به . وبذا يكون قوله : «وصد» مبتدأ لجملة مستأنفة . ثانيا يحول دون عطف المسجد الحرام علي الضمير في «به» وهو أقرب شيء إليه أمران : الأول أن الضمير المذكور يعود علي لفظ الجلالة من قوله : «عن سبيل اللّه» ، والكفر يكون باللّه وليس بالمسجد الحرام ، وثانيهما أن العطف علي الضمير المتصل الذي جر محله بالحرف لايعطف عليه إلا بعد تكرار حرف العطف . وذلك أن يقال : (وبالمسجد الحرام) . وهكذا يكون المعني : وصد عن المسجد الحرام .

٦ - قال تعالي : «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (آل عمران ٤٥ - ٤٩).

لو نظرنا في هذه الآيات عما يمكن أن يعطف عليه قوله «ورسولا» ما وجدنا معطوفا عليه أولي من لفظ «وجيها» ، أي أن اللّه يبشر مريم بالمسيح وجيها ورسولا . ولا يحسن بالطبع عطفه علي «كهلا» لأن الرسول من شأنه أن يكلم الناس ، وبذا يكون النص علي كلامه للناس حشوا لا مبرر له ، والقرآن منزه عن الحشو .

٧ - قال تعالي : «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ» (النساء ١٢٧) . المفتي في هذه الآية هو اللّه سبحانه وتعالي وما اشتمل عليه كتابه . وموضوع الفتوي هو النساء والمستضعفين من الوالدان . ولايجوز رغم القرب أن نعطف «مايتلي» علي الضمير في «فيهن» لأن ما يتلي هو بطبيعة الحال نصوص الفتوي ، ولأن هذا العطف يقتضي تكرار حرف العطف كما سبق منذ قليل . أما عدم جواز عطف «المستضعفين» علي الضمير في «تنكحوهن» فأوضح من أن يشار إليه إن لم تقم من النحو قاعدة تحول دونه . أي أن القرينة هنا خارجية لا نحوية .

الحال وصاحب الحال :

إذا تعددت عناصر أحد طرفي العلاقة النحوية كما في تعدد الخبر والنعت والمعطوفات والأحوال الخ فأولي هذه العناصر بالقرب من الطرف الآخر ، أي المبتدأ أو المنعوت أو المعطوف عليه أو صاحب الحال الخ هو أقصر العناصر المتعددة ثم يليه في الذكر ما هو أطول منه وهكذا . انظر مثلا إلي ما يلي :

قال تعالي : «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ» (البقرة ١٧٣) . ستري عددامن المعطوفات توالت في هذه اية أولها وثانيها (الميتة والدم) لفظان مفردان والثالث (لحم الخنزير) مركب إضافي أطول من المفرد ، والرابع موصول وصلته الجملة (ما أهل به لغير الله) وهو أطول مما سبق . وكذلك تلحظ هذه الطريقة من طرق الرصف في تعدد النعوت في قوله تعالي : «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ » (الكهف ٥٨) . فقد بديء النعت باللفظ المفرد ثم تلاه المركب الإضافي ثم جاء بعدهما الخبر . هذا هو الأسلوب الأشهر والأخف علي اللسان. أما إذا وجد ما يقتضي العكس وقامت القرائن بحراسة المعني فلا مانع من تقديم أطول العنصرين علي أقصرهما كما في قوله تعالي : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ» (الكهف ١-٢) فهناك حالان أولاهما «ولم يجعل له عوجا» أطول من ثانيتهما «قيما» . والمعني : أنزله مستقيما«قيما» . فما الذي اقتضي عكس الترتيب وما القرينة التي حفظت المعني أن يرتبك؟ والجواب أن الذي حفظ المعني أن لفظ «قيما» كان بحاجة إلي شرح المقصود بالقوامة ومن ثم جاء هذا الشرح فيما لحقه من قوله تعالي «لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين ... الخ» والقرينة التي حفظت المعني أن لفظ «قيما» وما لحقه بينهما من الصلة ما جعلهما شيئا واحدا هو أطول مما سبقه من عبارة «ولم يجعل له عوجا» . فلو تقدم لفظ «قيما» وما لحقه علي ما قبله لتأثرت جودة السبك .

الحرف ومدخوله :

قال تعالي : «وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١) . نسب النحاة إلي هذه الآية تقديرا نحويا يجعل «لما » جازمة حذف المضارع المجزوم بها لدلالة ما بعده عليه . والتقدير : (وإن كلا لما يوفوا ليوفينهم ربك أعمالهم) ، وهكذا صارت الجملة الواحدة جملتين ثانيتهما مستأنفة (أي منقطعة العلاقة النحوية بما سبقها ، وإن ظلت بينهما علاقة دلالية بمعني

الاستدراك ، أي : لكن ليوفينهم) . والأمر فيما يبدو علي غير ما قدره النحاة . وقبل أن نعارض تقدير النحاة ينبغي أن نسوق الآيات الكريمة التالية :

* « وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١)
* «وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» (يس ٣٢)
* « وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الزخرف ٣٥) .
* « إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » (الطارق ٤) .

ولقد قدر النحاة «لما» في هذه الايات بمعني «إلا» وربطوا بينها وبين «إن» في أول كل من هذه التراكيب ، فجعلوا «إن» نافية ونسبوا معني التركيب إلي القصر البلاغي . والأمر هنا أيضاً علي غير ما يقوله هؤلاء . فالمعروف أن التكرار والزيادة وسيلتان من وسائل التوكيد ، أما التكرار فأشهر استعماله في التأكيد ما يعرف باسم التأكيد اللفظي ، وأما الزيادة فهي وسيلة مشهورة كذلك من وسائل التوكيد . ويشهد للتكرار قول الشاعر:

ألا يا سلمي يادرار مي علي البلي ولا زال منهلا بجرعائك القطر

فقد كرر أداة النداء عندما دعاه حرصه علي الدار إلي التعجيل بالدعاء لها بالسلامة قبل ذكر المنادي فكرر الحرف مع المنادي . يشهد للزيادة من أجل التأكيد قوله تعالي : «فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» (الواقعة ٧٥-٧٦) . فلو زعمنا أن «لا» في «فلا أقسم» أصلية للتعبير عن معني النفي لوقعنا في التناقض بين نفي القسم وكونه قسما عظيما . إذا عرفنا هذا فبنا أن ننظر نظرة جديدة إلي الآيات السابقة، وسنجد أن اللام في الآيات الثلاث الأخيرة هي اللام المزحلقة التي تصاحب «إن» المخففة من الثقيلة والتقدير علي التوالي : وإن كل لجميع لدينا محضرون ، وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ، وإن كل نفس لعليها حافظ . و«ما» زائدة في كل ذلك . ويصدق ذلك علي «لما» التي في الآية الأولي ، فاللام هي المزحلقة و «ما» هي الزائدة . ولما كان تركيبهما معا

شبيها بلما الجازمة وكانتا داخلتين علي المضارع الذي من شأنه أن يلي «لما» تكررت اللام لأمن اللبس فكان تكرارها في الآية شبيها بتكرار حرف النداء في بيت الشعر المذكور منذ قليل . والتكرار فيهما مقصود لإفادة التأكيد ولا ضرورة في البيت فقد كان للشاعر مندوحة دون التكرار بأن يقول: ألا فاسلمي يا دار مي علي البلي .

الجار والمجرور والمتعلق :

١ – قال تعالي : «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (الرعد ١١) . لو علقنا الجار والمجرور بأقرب ما يصلح لذلك لجعلنا المعقبات تحفظ من إنفاذ أمر الله – تعالي الله عن ذلك – أما ما يستقيم به المعني فهو التعليق بصفة مقدرة للفظ «معقبات» يتعلق بها كل جار ومجرور بالاية.فالمعقبات موصوفة بأنها من بين يديه ومن خلفه ومن أمر الله ، والمقصود بالمعقبات ملائكة مسخرة من أمر الله .

٢ – قال تعالي : «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (القصص ٣٠) . أقرب ما يصلح أن يتعلق به الجار والمجرور «من الشجرة» هو صفة البقعة ، أي أن البقعة بهذا التعليق تصبح من الشجرة . ولكن الشجرة لايمكن أن تشتمل علي بقع مباركة أو غير مباركة . بذا ينبغي أن نبحث عن متعلق آخر يستقيم به المعني . وسنجد أن هذا المتعلق هو الفعل «نودي» ، أي أن النداء كان من الشجرة .

٣ – لكن قد تقوم قرينة علي أن الجار والمجرور متعلق بأقرب مذكور كما في قوله تعالي : « قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (الأحزاب ١٦) . في الآية لفظان يصلحان أن يتعلق الجار والمجرور بأي منهما ، أولهما المصدر «الفرار» والثاني الفعل «فررتم» ، ويختلف تقدير التركيب مع التعليق بأحدهما عنه مع التعليق بالآخر علي النحو التالي :

* قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل إن فررتم .

* قل إن فررتم من الموت أو القتل فلن ينفعكم الفرار .

فالفعل «فررتم» حدث غير متوقع في الحالة الأولي ولكنه فعل شرط متوقع حدوثه في الحالة الثانية . والمعروف أن المصدر حدث بلا زمن ولكن الفعل حدث وزمن ، وإن الزمن إن كان بعض معني الفعل فهو كل معني ظرف الزمان . فإذا ورد ظرف الزمان «إذن» فإنه يشير إلي زمن سبق التعبير عنه ، وهذا يتحقق هنا في الفعل لافي المصدر . وبذا يكون «من الموت» متعلقا بالفعل «فررتم» ، ويكون التقدير وإذا فررتم لا تمتعون إلا قليلا.

٤ - قال تعالي : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» (الحاقة ١٩ - ٢٢) . أقرب ما يمكن أن يتعلق به قوله «في جنة» هو لفظ «راضية» ولكن المعني الأوضح من السياق يتعلق بالأخبار عنه لا بوصف عيشته ، فيكون المعني : فهو في عيشة راضية وهو أيضا في جنة عالية .

المستثنى منه والمستثنى :

١ - قال تعالي : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» (هود ٨١) . لو تمسكنا بمبدأ القرب لقلنا المستثني منه لفظ «أحد» ، ولكان المعني علي استثناء المرأة المذكورة من النهي عن الإلتفات . أما قوله تعالي : «إنه مصيبها ما أصابهم» فقد جعل إستثناء هذه المرأة من الأهل . والمعني : (فأسر بأهلك إلا إمرأتك) علي الرغم من بعد المستثني من المستثني منه .

٢ - قال تعالي : «ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا» (البقرة ٢٨٢) طال الخبر بتوا لي المعطوفات (أقسط ... وأقوم ... وأدني) ولكل من

عناصر العطف ما يتعلق به ، وقد سبق أن أشرنا إلي أن ما عطف علي الشيء فهو منه وله حكمه . ومعني هذا أن الإستثناء مستخرج من الجملة الخبرية ذلكم أقسط ... الخ) دون فصل بين عناصرها .

٣ – قال تعالي : «وَمَا يَعْزُبُ عن رَبِّكَ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ من ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (يونس ٦١) . معني الآية والله أعلم : وما يترك ربك من شيء مهما صغر في الأرض ولا في السماء إلا مثبتاً في كتاب مبين . فالمستثني هو الإثبات في الكتاب ، والمستثني منه مطلق ما يقع في علم الله مما تتمثل عليه الأرض والسماء . ولقد طال المستثني منه وهو (من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) . ولكن سبب طوله هو العطف وقد سبق القول إن المعطوفات كالشيء الواحد . ويجوز أن يكون الفعل «يعزب» جاء علي معناه الأصلي (أي يبعد) وأن تكون إلا بمعني «لكن» .

٤ – قال تعالي : «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً » (الكهف ٥٥) والمعني والله أعلم : (وما حال بين الناس وبين الإيمان إلا أن حقت عليهم كلمة العذاب فكفروا لينزل العذاب بساحتهم) . هنا أيضا نجد العطف هو سبب البعد بين المسبب (المستثنى منه) والسبب (المستثني) ولا بأس بهذا البعد بسبب العطف.

٥ – قال تعالي : « وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ » (الحج ٥٢) . المستثني منه نفي الإرسال مطلقاً لجميع الرسل ، والمستثني رسول أو نبي تمني . وقد طال المستثني منه بالعطف في قوله تعالي : « من رسول ولا نبي» مسبوقاً بالجار والمجرور «من قبلك» . والبعد بسبب العطف موضع تسامح كما سبق ، فهو كلا بعد . والنص القرآني يرشد عند الاستقراء إلي كذب ما سيق هذا النص من أجله وهو قصة الغرانيق .

٦ – قال تعالي : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ » (هود ٨١) . «إلا » حرف إستثناء يخرج المستثني من حكم المستثني منه ، (أي يخرج إمرأته من مجموع أهله) . فالمعني : فأسر بأهلك إلا إمرأتك . وقد فصل بين الطرفين بقوله تعالي : «واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد» . والمعني واضح علي رغم طول الفصل .

التكرار تجنباً لأثر البعد :

أشرنا من قبل إلي أن أية علاقة نحوية أو أسلوبية بين عنصرين من عناصر السياق إنما تكون أكثر وضوحاً مع قرب أحدهما من الآخر منها عند بعده عنه . ومن هنا يلزم وجود القرينة عند بعد أحدهما عن الآخر . ولكن هذه القرينة قد لا تتحقق أحياناً مع مطل أول العنصرين أو بعده بالفصل أو الإعتراض ، وعندئذ يتكرر ذكر العنصر الأول ليقترب بالتكرار من العنصر الآخر ، فيكون التكرار وسيلة لإنشاء القرب بعد البعد . انظر مثلاً إلي الشواهد التالية :

١ – قال تعالي : «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (البقرة ٢٥٣) . الأصل في تركيب هذه الآية : ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولكن الله يفعل ما يريد . غير أن الجملة الاستدراكية التي تقول «ولكن الله يفعل ما يريد » حيل بينها وبين الجملة الأصلية التي تسبقها بعبارة «ولو شاء الله ما اقتتلوا». والعنصر الذي اعترض السياق قبل هذه العبارة مباشرة هو جملة استدراكية أخري تقول : «ولكن اختلفوا فمنهم من آن ومنهم من كفر» . هذه الجملة المعترضة باعدت ما بين صدر الكلام وعجزه فضعفت الصلة بينهما ، ومن هنا أصبح علاج هذا الضعف يتمثل في تكرار «ولو شاء الله ما اقتتلوا » فقرب صدر الكلام من عجزه بواسطة التكرار وقويت العلاقة .

٢ – قال تعالي : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقرة ٨٩) . يتمثل التكرار في عبارة «فلما جاءهم» ولو نظرنا إلي الكلمة التي تسبق تكرار المطلع والكلمة الأخري التي تأتي بعده لوجدناهما أيضا مكررتين علي صورة «كفروا» و «كفروا به» ، ولو لم نتفصل إحدي الكلمتين عن الأخري بواسطة التكرار المذكور لبدت ثانية الكلمتين كأنها توكيد لفظي لأختها وليست جوابا للأداة الظرفية الزمانية «لما» . وبذلك يتغير المعني ويحدث اللبس . وهكذا جاء التكرار ليقرب المسافة بين «لما» وجوابها بعد تباعدهما .

٣ – قال تعالي : «لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (آل عمران ١٨٨) . لو لم يوجد التكرار لبدت الآية علي النحو التالي : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب . عندئذ يبدو الجار والمجرور «بمفازة» وكأنه متعلق بالفعل الذي قبله مباشرة وهو «يفعلوا» ، وإذن يتغير المعني ويحدث اللبس . ومن هنا جاء التكرار وسيلة تقريب بين طرفي العلاقة ليقرب بين «تحسبنهم» و «بمفازة» فيكون العنصر المكرر أشبه بقرينة علي إرادة المعني المقصود .

٤ – قال تعالي : «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» (التوبة ٧ – ٨) . يقوم نص الآيتين علي معني الإنكار لمقابلة الخيانة من جانب وبرعاية العهد من الجانب الآخر ؛ إذ كيف يكون للمشركين عهد وإن يظهروا علي المسلمين لا يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . جاء لفظ «كيف» في أول الآية ثم طال الكلام بالإستثناء لطائفة من المشركين استقاموا علي العهد فضعفت العلاقة بين «كيف» النى في المطلع وبين الجملة

الحالية «وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة» فلو لم تتكرر «كيف» لإعادة إنشا الرابطة بين الإستفهام والجملة الحالية لتحولت واو الحال التي في «وإن يظهروا» إلي معني الإستئناف وهو غير مراد . ومن ثم تكررت «كيف» لتعيد العلاقة إلي حالها التي يقصد إليها المعني .

٥ – قال تعالي : «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ» (النور ٣٥ – ٣٦) . لإدراك قيمة تكرار الجار والمجرور في هذه الآية (في بيوت ... فيها .... فيها ....) دعنا نعرض النص دون تكرار الجار والمجرور هكذا : (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له بالغدو والآصال رجال) . وسنري عندئذ أن العلاقات التي كانت قوية فيما بين عناصر النص ضعفت حتي صلحت جملة «يسبح له بالغدو والآصال رجال» أن تكون إستئنافية دون أن يكون الفعل «يسبح»هو ما يتعلق به «في بيوت» فتكرار لفظ «فيها» مرتين حافظ علي تعلق الجار والمجرور «في بيوت» بكل من «يذكر» و «يسبح» . وبذا يكون التكرار لتجنب أثر البعد .

٦ – قال تعالي : «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ» (المؤمنون ٣٥) . التركيب بدون التكرار (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون) . وواضح من هذه الصورة الخالية من التكرار أن العلاقة بين «أن» وخبرها ضعيفة لطول الفاصل ولكون الخبر كلمة مفردة . ولقد سبق في الكلام عن قوله تعالي : «لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل «أن تأخير الفاعل» إيمانها «وإيراده في أول التركيب بعد نهاية صفة المفعول «نفسا» سيضعف العلاقة إلي غير حد بين الفعل وفاعله . وكذلك ذكرنا أن تأخير لفظ «قيما» في قوله تعالي : «ولم يجعل له عوجاً قيماً» ما كان ليحدث لو كان «قيما» لايصح أن يتقدم ويتأخر تفسيره منفصلاً عنه ؛ فكذلك الأمر هنا ، مما جعل تكرار «أنكم» أمراً لا غني عنه .

التفصيل بواسطة «أما» ونحوها :

التفصيل فرع الإجمال إذ يذكر المجمل أولا ثم يجري تفصيله بإحدي الطرق الأسلوبية مثل : «أما... وأما» بفتح الهمزة أو كسرها ، أو «ومنهم.... ومنهم» أو «هذا ... وهذا» أو «فريق .... وفريق .... الخ . ويمكن أن نورد بعض الشواهد علي هذه الطرق علي الترتيب كما يلي :

* «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ» (الضحي ٩ - ١٠) .

* «وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (التوبة ١٠٦)

* «مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ» (الأعراف ١٦٨).

* «وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ» (النحل ١١٦).

* «وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» (الشوري ٧).

* وليس القرب بين طرفي التفصيل (أو أطرافه) محققا علي هذا النحو دائماً ، إذ قد تبعد «أما» عن «أما» الأخري ، أو «من» ومجرورها عما يعادلها كما في قوله تعالي :

١ - «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ» (فصلت ١٥ - ١٧) . ويلاحظ ما يلي :

١ - أن «أما» الأولي في الآية رقم ١٥ وأن الثانية في الآية ١٧ . فبينهما مسافة .

٢ - أن الذين آمنوا ليسوا ضمن خطة التفصيل لنجاتهم من العذاب، ومن ثم لم تسبقهم «أما» .

ب - «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ» (التوبة ٦١) .

«ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين (٧٥) فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون» (التوبة ٧٥ - ٧٦) .

« ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر» (التوبة ٩٨) .

« ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله » (التوبة ٩٩).

«وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة»(التوبة ١٠١).

هذا ويلاحظ أن هذه الآيات من سورة التوبة تفصل القول في سلوك طوائف من أهل المدينة وبمن حولها من الأعراب لتبصر النبي صلي الله عليه وسلم والمؤمنين بالمنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين ومن يتربصون الدوائر بالمسلمين ليكون المسلمون علي بصيرة بهم وحذر منهم .

وقد تحذف «من» الثانية وما يمكن أن تدخل عليه مع بقاء واو العطف كما في قوله تعالي : «وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» (الأعراف ٨٧) أي وطائفة منكم لم يؤمنوا .

«يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد» (هود ١٠٥) . أي ومنهم سعيد .

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » (التوبة ١٠٢) . أي ومن الأعراب آخرون .

والتفصيل إذ يكون واضحاً في هذه الأساليب المختلفة علي رغم البعد ما بين طرفيه إنما هو القرينة التي تغني عن أية قرينة أخري .